كنـــانيش 4 - منشـــــورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجـــدة- ص: 79 -86

الديمغــرافيـــا التـــاريخيـــة

ملاحظات على ضوء كتب الأنساب

محمد حبيذة

Mohamed Habida

Résumé

La démographie historique: Remarques faites à la lumière des livres "Al Ansab"

Cette contribution tente de révéler les limites que présentent les ouvrages d' »Al Ansab » (Généalogie) à ceux qui s'intéressent à la démographie historique, et ce à partir de l'ouvrage « Talàt al mushtari fi nassab al Jaâfari » d'Ahmed ben Khalid An Nasiri.
Bien qu'il ne présente que quelques indications démographiques qui sont loin de se conformer aux colonnes telles qu'elles sont tracées par les historiens en Europe, l'ouvrage est riche en renseignements démographiques : délimitation du nombre d'enfants dans les familles, mortalité infantile etc...

Historieal Demography: Remarks made in the light of the "AI Ansab" books

Abstract

The present contribution aims at revealing the limitations of "Al Ansab" works (Genealogy) to those who are concerned with historical demography, and this will be achieved through Ahmed ben Khalid An-Nasiri's work " Talât al mushtari fi nasab al Jaâfari".
Though it shows only a few demographic pieces of information that are far from conforming to the columns drawn by historians in Europe, this work is rich in demographic enquiries: delimitation of child number in families, infant mortality, etc.

الديمغرافيا التاريخية
ملاحظات على ضوء كتب الأنساب

محمد حبيذة

الحديث عن الديمغرافيا التاريخية في المغرب كإجرائية كمية أمر صعب جدا. فغياب التأطير الإداري في مغرب ما قبل الحماية، وخصوصا ما قبل ترتيبات نهاية القرن 19، جعله يفتقد لسجلات الولادات والوفايات، وسجلات الجبايات، وهي، بالتحديد، المستندات التي مكنت الأوربيين من إعادة بناء تاريخهم الديمغرافي على نحو كمي هائل، عبر سلسلة من البيانات والجداول والقوائم.[1] فأغلب الدراسات، في المغرب، سواء على المستوى الوطني أو الإقليمي، اصطدمت بمشاكل الأرشيف. فقد اضطرت لتنهل من اللوحات الجغرافية التي رسمها الوزان، من شهادات الإخباريين، من ملاحظات الأوربيين.

فهل لدينا القدرة للخروج عن هذه القاعدة. هل توجد إمكانات مصدرية أخرى. في كتابه "الساكنة القروية بالمغرب"، يقول دانيال نوان الذي خصص فصلا كاملا للجانب التاريخي استنادا إلى النصوص الأوربية: "من غير المستحيل أن تحتوي الوثائق المغربية المغمورة على مفاجئات"[2]. والواقع أن عددا من الإشارات تقدم بعض الإرهاصات في هذا الاتجاه. في التأليف الجينيالوجي الذي وضعه أحمد بن خالد الناصري عام 1891 تحت عنوان "**طلعة المشتري في النسب الجعفري**"، استرعت انتباهنا العبارة التالية: "وكان الشيخ رضي الله عنه [في إشارة إلى شيخ الزاوية الناصرية ومؤسسها] إذا ولد له مولود، ذكر كان أو أنثى، قيد تاريخ ولادته وذكر اسمه واسم أمه"[3].

---

1 - محمد حبيدة، الديمغرافيا التاريخية: من الإجرائية الكمية إلى المقاربة الكيفية. مجلة "كنانيش"، عدد 1، 1999، صص. 11-16.

2 - دانيال نوان، الساكنة القروية بالمغرب، باريس، 1970، ج. 1: 21. (بالفرنسية).

3 - أحمد بن خالد الناصري، طلعة المشتري في النسب الجعفري، طبعة حجرية، ج.1: 300.

ونتوفر على إشارات أخرى. لقد ورد في كناشة لمحمد العربي بن الطيب القادري ما يلي: "ولدت لي بنية سميتها فاطمة قبيل يوم الجمعة 24 صفر 1087 ثم ولدت لي بنية أخرى سميتها الطاهرة يوم 6 ذي القعدة 1091... ثم ولدت لي بنية أخرى سميتها رقية يوم 17 جمادى الأولى 1093"[4]. وفي رحلة الوافد، نسجل أيضا فقرة هامة. يقول عبد الله بن إبراهيم التاسفتي وهو يحيل على تاريخ ميلاد والده: "ولادته على ما وقفت عليه مقيدا بخط جدنا سيدي محمد بن عبد الرحمن نصه" زاد عندنا المولود المبارك السعيد بجاه النبي عليه السلام إبراهيم بن محمد عشية يوم الأحد الوافي عشرين يوما من شهر الله المعظم رمضان عام 1070"[5].

هل كان هذا التقييد أمرا مألوفا؟ وفي أي نطاق كان يتم؟ هل كان يتم في نطاق العائلة فقط أم أيضا في نطاق آخر؟ لماذا لم يكن يتم في نطاق المدينة والدوار والدشر تحت إمرة القاضي والقايد والشيخ ليمنح لنا سجلات منسقة ومنتظمة تؤطر البشر وتضبط أسماءهم و أنسابهم، تواريخ ميلادهم ووفاتهم، زواجهم وطلاقهم، بغض النظر عن الإطار الاجتماعي أو الديني أو المعنوي؟ يبدو أن القلم ظل حكرا على العائلة، على الأوساط ذات الصلة بالجاه والصلاح والشرف. ذلك ما يفسر، أصلا، وجود كتب التراجم والمناقب والأنساب. أما عامة الناس فقد ظلوا، ربما بحكم أسلوب معاشهم على هامش التدوين. ففي البوادي، حيث تعيش الغالبية العظمى من السكان كانت "الحياة تحت الخيمة، كما يرى مارسيل ليسن، غير ملائمة لحفظ الوثائق المكتوبة"[6]. وعليه، يكون من الصعب جدا تناول الديمغرافيا التاريخية في المغرب على النحو الذي عولجت به في أوربا، استنادا إلى الأرشيف الكنسي وسيرا على نهج التحليل الكمي المجهري، وبالتالي تتجه بنا مصادرنا، بصورة إرادية وربما لاإرادية، نحو إجرائية يحددها الموضوع أكثر مما يحددها المصدر والمنهج، أي تاريخ السكان وليس الديمغرافيا التاريخية.

4 -محمد العربي بن الطيب القادري، كناشة، مخطوط خ. م.، 2389، ص. 45.
5 - عبد الله بن إبراهيم التاسفتي، رحلة الوافد، تحقيق علي صدقي أزايك، الرباط، 1992، ص. 242.
6 - مارسيل ليسن، زمور، مبحث في التاريخ القبلي، مجلة "الغرب الإسلامي و البحر المتوسط"، عدد 2، 1966، ص. 112.(بالفرنسية).

ما هي إذاً إمكانات مصادرنا، في كتب الأنساب، بالتحديد. ليس في نيتي استعراض الأرشيف الجينيالوجي في نظامه ومضامينه وأهميته. فذلك أمر يخرج عن إطار هذا المبحث الوجيز. هدفنا هو فتح نافذة في هذا الأرشيف لجمع ما يتيحه من فوائد ديمغرافية واستقصاء إمكاناتها وآفاقها.

نقتصر على عنصرين مترابطين:1) عدد أطفال الأسرة الواحدة 2) وفايات الأطفال. وذلك من خلال كتاب "**طلعة المشتري**..." للناصري[7]. من أصل كم هائل من الأسر ذات الأنساق المتباينة: أسر ممتدة، أسر متعددة الزوجات، أسر أحادية الزواج، تمكنا من إحصاء 98 أسرة قابلة للتحول إلى وحدات حسابية، أي مكونة من زوج وزوجة وأطفال.

بيان 1

عدد أطفال الوحدة الأسرية	عدد الوحدات الأسرية
1	9
2	27
3	15
4	16
5	13
6	10
7	02
8	03
9	02
12	01

لنقرأ هذه الأرقام. ثلاث ملاحظات تفرض نفسها:

1- النسبة الإجمالية هزيلة جدا: 57 طفل على 98 أسرة تساوي 1,7 طفل لكل أسرة.

2- 12 طفلا للأسرة الواحدة نسبة قليلة.

3- المقطع الغالب تمثله 54 أسرة ذات 3 إلى 6 أطفال مما يمنح معدل 4,5 طفل للأسرة الواحدة، الشيء الذي يشير إلى أن 55,1% من العينة

7 - الناصري، طلعة...، جزآن.

الديمغرافية التي بين أيدينا تتكون من أسر ذات 6 إلى 7 أفراد، أخذا بعين الاعتبار الأب والأم. أما 44,9 الباقية فتحكمها أرقام قصوى، في الاتجاهين، دنيا أو عليا.

وعموما، تظل النسبة العددية للأطفال في الوحدة الأسرية ضعيفة. وهو واقع تفسره ظاهرة وفايات الأطفال. وتمنح "**الطلعة**..." إمكانية تلمس هذه الظاهرة عبر جرد ل 17 أسرة[8]:

بيان 2

عدد الأطفال في الأسرة الواحدة	عدد النساء في الأسرة الواحدة	عدد وفيات الأطفال
8	3	3
8	3	1
7	2	عدة
6	3	3
6	3	1
6	–	1
5	1	2
5	1	1
5	1	عدة
4	2	1
3	1	1
3	1	1
3	1	1
2	1	2
2	1	1
–	–	عدة
–	–	1

تشير هذه المعطيات إلى نقطتين أساسيتين:

8 – ن.م.

1- أكثر من 27,5% من الأسر تفقد أطفالا في سن مبكرة، دون احتساب المؤشر الانطباعي "عدة"، وهو ما قد يصل بنا إلى حدود 40 وربما 50% لتسير بالتالي في اتجاه البيان الأول.

2- بالنظر لعدد الأطفال المكون للأسرة تظهر نسبة الوفايات قوية. فهي تتأرجح ما بين 20% (حالة طفل على خمسة) و100% (حالة طفلين على طفلين) .

تعود هذه النسبة القوية للوفايات، من دون شك، إلى العودة المتكررة للمجاعات و الأوبئة. فبحكم هشاشتهم البيولوجية يكون الأطفال إبان الأزمات الغذائية، أكثر عرضة لسوء التغذية والمرض وبالتالي الموت. مبدئيا، يتغذى الرضيع من ثدي أمه إلى حدود السنة الثانية من عمره، عملا بقوله تعالى: "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين"[9]. بعد ذلك، وربما قبل التمام يمر الطفل لنظام غذائي يغلب عليه الشعير أو القمح. نقرأ في نوازل العباسي: "رضيع ذهب به جده وهو ابن سنة يأكل الطعام ويمشي على يديه ورجليه ثم مرض فمات"[10]. وعليه فإن الأمراض، كما لاحظ ذلك موريس إيمار بخصوص تاريخ أوربا ما قبل الصناعية، "لا تعصف بالرضع الذين يحميهم نسبيا حليب أمهاتهم، الغني بالبروتينات المتكاملة، بل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين 9 أشهر و3 سنوات، مع مرحلة الفطام والمرور من الحليب إلى تغذية الكبار القائمة على أساس الزروع"[11].

تمنح كتب الأنساب إذاً إمكانات، لكنها محدودة. والحقيقة أنها لا تمنح سوى فتاتا ديمغرافيا، لا تمنح سوى إرهاصات ومؤشرات. فحتى لو قمنا باستغلال كل كتب الأنساب المتوفرة على نحو منسق وربما معلوماتي، فسنظل دائما على هامش القوائم الديمغرافية الحقيقية كما وضعها المؤرخون في أوربا على أساس محلي ثم إقليمي ثم وطني، طبقا لسلسلة منتظمة من المعلومات البطائقية للشخص ضمن انتمائه المجالي، أولا وقبل كل شيء، انتماؤه لخوريته وحيه، لقريته ومدينته.

ثم ما الجدوى من إعادة بناء تاريخ الأعداد، تاريخ الموت في مستواه الديمغرافي، تاريخ مأساوي قضى عليه جزئيا تقدم البشرية، كما يرى ميشيل

---

9 - قرآن كريم، البقرة، الآية 231.

10 - أحمد بن محمد العباسي، الأجوبة، طبعة حجرية، ج. 2: 243.

11 - موريس إيمار، من أجل تاريخ للتغذية: بعض الملاحظات المنهجية، مجلة الحوليات. اقتصاديات، مجتمعات، حضارات، 1975، ص. 442. (بالفرنسية).

فوفيل[12]. فهل علينا التخلي عن المستوى الديمغرافي الصرف والتركيز أكثر على الموت في مستوييه، الطقوسي والخطابي، أي السير بالديمغرافيا نحو ما هو كيفي، نحو سلوكات الناس وتصوراتهم وهواجسهم، وبالتالي الاستفادة أكثر مما تتيحه المصنفات ذات النفحة الديمغرافية كالأنساب والمناقب والتراجم من إمكانات لمقاربة العقليات والتمثلات الجماعية؟

12 - ميشيل فوفيل، هل ثمة لاشعور جماعي، ضمن "إيديولوجيات وعقليات"، باريس، 1985، ص. 91. (بالفرنسية).